المحاضرة الخامسة

مفهوم الثقافة*Culture* *Concept*

 يعدُّ مفهوم الثقافة عند الأنثروبولوجيون الثقافيون (بوصفه الحجر الأساس للأنثروبولوجيا الثقافية) الأكثر نقاشا وجدلا على المستوى الأكاديمي للعلم بشكل عام، ويتفق علماء الأنثروبولوجيا الثقافية على أن الثقافة هي موضوع علمهم، ولكنهم يختلفون في تعريفها، عرفها البعض بانها (السلوك المكتسب), وعند البعض الاخر الثقافة ليست السلوك وانما هي (تجريدات مأخوذة من السلوك) وبينما يعتبر البعض الاشياء المادية مثل الادوات والالات والملابس والمنازل داخله في نطاق الثقافة, يرفض ذلك البعض الاخر ويقررون ان الثقافة تقتصر على الافكار وانماط السلوك, وفيما يتعلق بالعلماء الذين يعرفون الثقافة بانها مجموعة من الافكار تراهم يختلفون تحديد مراكز او مكان تلك الافكار: قال بعضهم ان مكانها هو عقول الافراد موضوع الدراسة, وقال البعض الاخر ان مركزها هو عقول علماء الانثروبولوجيا, ويرفض البعض الثالث ذلك التعريف من اساسه ويقررون ان الثقافة ليست الافكار وانما الاشياء والافعال الخارجية التي يمكن ملاحظتها حسيا.

 ومن اقدم التعريفات واشدها رسوخا وثباتا كان التعريف الذي قدمه الاستاذ ادوارد بورنيت تايلور *Edward Burnett Tylor* في بداية كتابه (الثقافة البدائية) *Primitive Culture* (1871), حيث عرف الثقافة بانها ( تلك الوحدة الكلية التي تشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع). وفي كتابه الانثروبولوجيا (1881), اضاف تايلور ان الثقافة بهذا المفهوم, هي شيئ لا يمتلكه الانسان[[1]](#footnote-1)(1). وقد تبنى الأنثروبولوجيون هذا التعريف لعقود عدة.

وتعريف تايلور يسُهم كثيرًا في تدعيم العلاقة بين الثقافة والأنثروبولوجيا، بحيث أصبح من غير الممكن النظر إلى الثقافة دون العودة إلى الأنثروبولوجيا، التي تقدّم أجود تعريف للثقافة، وهو التعريف الذي اشتهر به صاحبه في عصره، وحقق به إنجازًا معرفياً استفادت منه الأنثروبولوجيا في تعزيز مكانتها بين العلوم الاجتماعية الأخرى .

وضمن هذا المفُهوم يرى جيمس سبرادلي*James* *Spradley* ، أنّ ثقافة المجتمع تتكوّن من كلّ ما يجب على الفرد أن يعرفه أو يعتقده، بحيث يعمل بطريقةٍ يقبلها أعضاء المجتمع، إنّ الثقافة ليست ظاهرةً ماديةّ فحسب، أي أنّها لا تتكوّن من الأشياء أو الناس أو السلوك أو الانفعالات، وإنّما هي تنظيم لهذه الأشياء في شخصيةّ الإنسان، فهي ما يوجد في عقول الناس من أشكال لهذه الأشياء.

وهذا يتّفِق إلى حدٍّ بعيد مع التعريف الذي يفيد بأن مصطلح الثقافة *Culture* في اللغّة الإنجليزية، يدلّ على معنى الحضارة *Civilization* كما في اللغّة الألمانية، وله وجهان :

وجهٌ ذاتي: هو ثقافة العقل، ووجهٌ موضوعي: هو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية، والآثار الفكرية والأساليب الفنيةّ والأدبية، والطرق العلمية والتقنية، وأنماط التفكير والإحساس، والقيم الذائعة في مجتمع معينّ، فالثقافة هي طريق حياة الناس، وكلّ ما يمل كون ويتداولون، اجتماعياً وبيولوجيا.

ويعَتقدُ مُعظم علماء الأنثروبولوجيا أنّ الحضارة ما هي إلا مجردّ نوعٍ خاص من الثقافة أو بالأحرى شكلٌ معقّد أو "راقٍ" من أشكالها، ولذلك لم يعتمدوا قطّ التمييز الذي وضعه علماء الاجتماع بين الثقافة والحضارة، فمن المعروف أنّ بعض علماء الاجتماع يمُيّزون بين الحضارة بوصفها : المجموع الإجمالي للوسائل البشرية، وبين الثقافة بوصفها :المجموع الإجمالي للغايات البشرية.

لقد توصل العالمان (*Kroeber and Kluckhohn*) من تفحصهما لما يزيد عن المائة والخميس تعريف من التعريفات التي قدمها الأنثروبولوجيون للثقافة في المؤلف الذي نشر عام 1952م تحت عنوان الثقافة، بعض هذه التعريفات وصفية تهتم بتبيين المحتوى والمكونات، والبعض الآخر سيكولوجي يهتم بالجانب الرمزي وبتعلم الرموز، والبعض الآخر بنائي يهتم بالصيغ العامة وأنماط الفعل والسلوك، وفي توجهات الأستاذ(*A.* *Kuper*) المهتمة بوصف الباحث الأنثروبولوجي للثقافة وتعليلاته للمادة الإثنوغرافية المرصودة التي قدمها في الكتاب المنشور عام 2000 تحت عنوان *Culture,* *The* *Anthropologist`s* *Account*. ولم يجدا من بينها تعريفا مقبولا، إذ وجه القصير في الكثير منها يكمن في كون هذه التعريفات لا تميز بوضوح بين المفهوم والأشياء التي يشير إليها. ومن ذلك حدد الأمريكيان (*Kroeber and Kluckhohn*) تعريفا للثقافة حيث يقول *Kluckhohn*: (... الثقافة عملية تجريدية). ووافقهم على هذا التعريف بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا واخص بالذكر العلامة بيلز *Beals* وهويجر *Hoijer* بأن الثقافة هي: (تجريد مأخوذ من السلوك الإنساني الملاحظ حسيا ولكنها ليست هي ذلك السلوك)[[2]](#footnote-2)(1)، ويقولان: (لا يستطيع الأنثروبولوجي أن يلاحظ الثقافة مباشرة), ويقول العلامة كروبر في نفس المعنى بانه يمكن للعالم ان يرى الاشياء والاشخاص وافعالهم وتفاعلاتهم, ولكن لا يمكن لاحد ان يرى الثقافة.

 ويؤيد هذا التعريف عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية "راد كليف براون *Radcliffe* *Brown*" بقوله: (لا تعبر الثقافة عن أي شيء واقعي محسوس وإنما عن تجريد، وغالبا ما يستخدم كتجريد غامض), ان براون يقصد بذلك نقد علماء الانثروبولوجيا الثقافية من ناحية ان موضوع علمهم هو مفهوم تجريدي غامض, لانه يحبذ الاخذ بمفهوم البناء الاجتماعي موضوع الانثروبولوجيا الاجتماعية.

وقد ادى تعريف الثقافة بانها (عملية تجريدية) اثار تساؤلات حول حقيقة الثقافة بوصفها (مجرد تجريد) ولا يمكن لشيء مجرد لا وجود له مادياً في العالم المشاهد ان يكون موضوعا للعلم والبحث, فآنية الفخار واحتفال الزفاف هما شيئآن ملموسان محسوسان, وليسا تجريدين. وحاول الاستاذ ليزلي وايت (*Leslie* *White*) ان يقدم حلا لهذا الاشكال في مقالته (مفهوم الثقافة) (1959) حين اكد ان القضية ليست في ما اذا كانت الثقافة شيئاً حقيقياً او مجرداً, بل القضية كل القضية هي في السياق الذي يجري فيه التأويل العلمي, فعندما ينظر الى الاشياء والاحداث في سياق علاقتها بالكائن الانساني, فهي تؤلف سلوك, وعندما ينظر اليها ليس من خلال علاقتها بالإنسان بل علاقتها بعضها ببعض فهي تصبح ثقافة, وهذا هو التمييز ذاته الذي طبقه علماء اللغة على الكلمات على مدى سنين طويلة, عندما ننظر الى الكلمات من خلال علاقتها بالإنسان , أي من حيث انها افعال صادرة عن فاعل, فهي تصنف في خانة السلوك/ وعندما ينظر اليها من خلال علاقتها ببعضها, حيث نرى المعجم والصرف والنحو وما الى هنالك, فهي تصبح لغة, وبهذا لاتكون موضوعا للدراسة النفسية, بل للدراسة اللغوية.

وتعرف موسوعة علم الإنسان لفظة (ثقافة) على انها تمثل ذلك النمط من السلوك الذي اكتسبه اي فرد من يوم الولادة، وتعلمه من الوالدين والأقران عبر التنشئة والتطبيع ليصبح ويبقى ذلك العضو المحدد في الجماعة التي ارتبط بها. وتضيف الموسوعة أنَّ لفظة الـــ(ثقافة) هي أداة التعريف التي يتباين معناها تبعا للاستعمال او التوظيف وكما يأتي[[3]](#footnote-3)(2):

*الاستعمال الاول:* يمكن ان تظهر الثقافة بصيغة اي نسق محدد للعناصر الذهنية او الفكرية والنظم التي يحويها النسق مثل القيم والأفكار والقواعد الأخلاقية والمعايير ورؤى العالم والخرائط الإدراكية والأنظمة اللاهوتية...كما هو الحال مثلا في اصطلاح الثقافة الأمريكية والثقافة الفرنسية...

*الاستعمال الثاني:* وفي استعمال اخر تشير الثقافة الى الفعاليات والممارسات الاعتيادية للناس والتي تحددت داخليا وخارجيا على حد سواء بوصفها تمثل المجتمع المستقل كليا عن غيره من المجتمعات والمعرف بخصائص ثقافية مميزة او فارقة مثل اصطلاح مجتمع النوير او التيف او الدنكا...

*الاستعمال الثالث:* وهناك استعمال ثالث يشير الى اي فئة اجتماعية مفصولة بشكل واضح وتكون متعارضة مع اهم النظم الاجتماعية الكبيرة عند تميزها بخصائص معينة مثل ثقافة السود في أمريكا...

*الاستعمال الرابع:* ويشير الاستعمال الرابع الى مجموعة السمات المرتبة بمجموعة من الطرق المتنوعة ولكنها توزعت على عدد من المجتمعات القابلة للتعيين او التحديد مثل الثقافة الغربية (اي نسبة الى دول الغرب) والثقافة الشرقية...

وقد اتجه الأنثروبولوجيون (الثقافيين)عند مناقشة المفهوم ميدانيا نحو الغرضية التي يقصدها الباحث الأنثروبولوجي عند دراسة سلوك الناس، أي هل يتجه نحو وصف السلوك وبيان خصائصه، أو تجريد السلوك وبيان نمطه، فالفريق الأول اقتفى تعريف الأستاذ (*E.Tylor*)الذي ميزها على انها تمثل الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والعادات...وما يكتسبه الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع أما الفريق الأخر الذي تمثل بتلامذة (*F.* *Boas*) يرى الثقافة بأنها النمط *Pattern* الذي يتم استخلاصه وتجريده من السلوك. وبذلك تباينوا فيما بينهم عند مناقشة المفهوم إلى وصفيين وتحليليين. وبنفس الوقت اتفقوا على ان المفهوم بشكله العام يمثل القواعد التي تحكم السلوك أكثر من السلوك نفسه، فضلا عن جوانبها المادية وغير المادية.

1. (1) كليفورد جيرتز, تأويل الثقافات [↑](#footnote-ref-1)
2. (1) كليفورد جيرتز, تأويل الثقافات, ت. د. محمد بدوي, المنظمة العربية للترجمة, بيروت, ط1, 2003, ص9. [↑](#footnote-ref-2)
3. (2) D. Hunter and PH Whitten: Encyclopedia of Anthropology, Harper and Row, Publisher, New York, USA,1977,pp123-126 [↑](#footnote-ref-3)